الفلسفة والإديولوجية

تعتبر الفلسفة نظرة تأملية في الحياة والكون، تستهدف فهم الذات وسبب وجودها، وعلاقتها بالبيئة وما بها من أشياء مرئية وغير مرئية. إذ حين يتأمل الإنسان في الكون المحيط به، يعيش أعلى درجات السمو مع الروحانيات والفكر المجرد من تركة التراث وأعبائه، يشتم رائحة النسيم القادم من عمق البحر وبحر الصحراء، ويتلمس الحنان القادم من حضن النهر ونهر الحب، ويتذوق طعم العسل القادم من مستوطنات النحل التي لا تتوقف عن العمل ليل نهار. وهذا يقود الفيلسوف إلى معانقة الطبيعة عن قرب ورؤية جمالها على طبيعته، وإدراك حقيقة الحب وقدرته على العطاء، ما يجعله يعيش مع القمر والنجوم والليل والنهار إنسانية العشق وعشق الإنسانية. لذلك تعكس كتابات الفيلسوف والمفكر إحساسه بعظمة الكون، وحقيقة اعجابه بما يكتنف حياته من أشياء حقيقية ورمزية، حاضرة وغائبة، ساكنة ومتحركة. ومن خلال ذلك الإحساس والإعجاب، يجد الفيلسوف والمفكر نفسه يسمو إلى ما بعد المرئي... إلى كون آخر يُداعب أحاسيسه فتغدو مرهفة، يُهذِبُ مشاعره فتغدو رقيقة شفافة، يُغذي عواطفه فتغدو جياشة، يتحدى مواقفه فتغدو شُجاعة، ويُعانق قلبه فيغدو رقيقاً مطمئنا. وهذا يعني أن الفلسفة سماء مفتوحة بلا حدود، تُغري الطيور والأرواح النقية والعقول النيرة على التجوال في عالمها الرحب بحرية واطمئنان، وتحثها على تقليد النجوم في زهوتها وأناقتها ووداعتها ونورها، والارتواء من كل ما توحي به الطبيعة من حب وشوق، حنان وصفاء، عشق وشاعرية.

إن أخطر ما يهدد كل فلسفة، سواء كانت دينية آو غير دينية، هو التحول إلى إيديولوجية تفرض على من يؤمن بها قيوداً لا تسمح لهم بتجاوزها أو حتى نقدها. إذ أن حدوث مثل هذا التحول، والذي يأتي عادة نتيجة لفعل أشخاص هدفهم توظيف الفلسفة في خدمة طموحاتهم السياسية، يجعل النظرة الكلية إلى الكون ومخلوقاته تُختصر في جُزيئيات صغيرة تُرهق العين وتُتعب القلب. كما أن من شأن هذا التحول أيضاً أن يختصر التمعن في جمال الكون وكماله وإعجازه إلى طقوس شبه مقدسة تُحاصر الخيال وتكبل العقل. وهذا يتسبب في تحويل الفلسفة برمتها إلى شعارات وهمية تُلهب حماس الجماهير دون أن تقدم للناس شيئاً سوى وعود مبهمة، وتقوم بتحويل أحاسيس الإنسان المرهفة إلى مشاعر عنصرية عدوانية، ومواقفه الأخلاقية إلى سياسات قمعية، ما يؤدي إلى تشويه وجه الفلسفة وتدمير روحها ورسالتها الإنسانية.

أما الايديولوجية فهي مكان مفتوح ضمن زمن مغلق، لا يتحرك إلا في مكانه، ولا يقوى على العيش خارج الزمن الذي ولد فيه. إلا أن تغير الظروف وتتابع الأزمنة، يفرض على كل ايديولوجية أن تخرج هي

وعصرها من الزمن الذي تعيش فيه، ما يجعلها تتقوقع حول نفسها وضمن نظرتها الضيقة إلى الكون. وهذا يجعل كل من يدخل بوابة العقيدة الواسع وزمنها الساكن يجد نفسه في مكان معتم يستنشق هواء مُعتقاً فاسداً. وبسبب هيمنة أفراد "عظماء" على كل ايديولوجية، فإن المؤمن يجد نفسه مُسخراً لخدمة أهداف وهمية، مُجنداً في حملة تبشيرية لاعتقال المزيد من النفوس البريئة والزج بها في سجن الايديولوجية المظلم، مُتطوعاً لخوض معارك ضد الفكر والحرية بمفهومها الشامل، والتضحية أحياناً بنفسه في حرب شرسة ضد البعض من الناس، وربما ضد الإنسانية جمعاء.

إن انقاذ ايديولوجية من سجنها يتطلب أولاً تحريرها من الزمن الذي ولدت فيه، وتحرير أسراها ثانياً من سجنها المعتم ونظرتها الضيقة إلى الكون ومخلوقاته. إذ إن تحرير ايديولوجية من الزمن الذي ولدت فيه يؤدي بالحتمية إلى تحريرها من مكانها المعتم وهوائه الفاسد، وتمكينها من استنشاق الهواء النقي والتعايش مع زمنها والتطور تبعاً لتطوره. وهذا من شأنه أن يعيدها إلى ما كانت يجب أن تكون عليه بوصفها فلسفة اجتماعية إنسانية تتعامل بالفكر ومع الفكر بحرية، وتستهدف السمو بالإنسان إلى روحانيات الكون وصولاً إلى المعرفة بأسمى معانيها وأجمل صورها. نتيجة لذلك، يصبح من الممكن تصالح الفلسفة المعنية وأتباعها مع الزمن والغير من الناسً، كما يصبح الرضا عن النفس متاحاً لكل إنسان، والتمتع بالعيش مع الآخر أمراً مرغوباًَ، والتواصل مع خالق الكون من دون وسيط. من البشر جوهر الايمان والوجه الإنساني للحياة. ومع تصالح الايديولوجية مع الزمن ومع الناس، يصبح بإمكان الإنسان أن يعيش حياته في جو من الوئام مع الطبيعة، والتمتع بكل ما في الكون من أشياء ومخلوقات.

د. محمد ربيع www.yazour.com